جامعة واسط
مجلة كلية التربية

العدد الأربعون
الجزء الأول / آب / ٢٠٢٠

التأسيس الأيديولوجي لمكانة المرأة في التوراة والفكر اليهودي (نساء الأنبياء انموذجاً)

م.د شيماء بدر عبدالله
جامعة واسط/ كلية التربية جامعة واسط

ملخص البحث

يتناول هذا البحث مكانة المرأة في التوراة والفكر اليهودي والتأسيس الايديولوجي لها، ولكثرة القصص الواردة بخصوص المرأة فقد اقتصرنا على ذكر نساء الأنبياء كأنموذج لبيان هذه المكانة، وولم نقتصر على ذكر زوجات الأنبياء فقط، وإنما تعدينا إلى ذكر بناتهم وأمهاتهم في محاولة لتسليط الضوء على ما تناوله الفكر اليهودي المبني على تعمد الإساءة لمقام أنبياء الله في كثيرٍ من نصوص التوراة، بل لا يكاد يخلو تاريخ نبي من الأنبياء من تعرضه بصورة مباشرة لمثل هذه الإساءات، وقد اتخذت أشكالاً وصوراً عدّة، لعل واحدة منها هي الإساءة لنسائهم، وتقديم صورة مشوهة لصورة المرأة في بيت النبي التي قدموها كحاقدة وزانية وعابدة للأصنام وغير ذلك من الصور التي مثّلت بصورة عامة مكانة المرأة في المجتمع اليهودي، والنظرة الدونية التي نظر إليها الفكر اليهودي عموماً. ولقد استخدمنا أسماء الأنبياء وأسماء النساء دون ذكر عبارات التقديس كما وردت في التوراة .

الكلمات المفتاحية (Keywords): التوراة (Torah)، الإنجيل (Gospel)، القرآن الكريم (Holy Quran)، المرأة (Women)، الفكر اليهودي (Jewish Thought)، الرب (Lord)، أنبياء (Prophets)، النص التوراتي (Biblical Text).

Abstract

This research deals with the status of women in the Bible and Jewish thought and ideological foundations, and because there are many stories received about women, so we limited to the women of the prophets as a model to show that status, in addition to mention their daughters and mothers in an attempt to shed light on what the Jewish thought based on the abuse of the prophets in many The texts of the Torah, but hardly the history of a prophet from the prophets of direct exposure to such abuses that took many forms and forms, and perhaps the abuse of their women is one of them, and provide a distorted image of women in the house of the Prophet and presented as a harlot and adulterous and worshipers of idols and other, which reflected the status of women in the Jewish community .

المقدمة

شكلت قضية المرأة في أغلب المجتمعات جزءاً مهماً من حياة تلك المجتمعات، وفي كل نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وقد تباينت مكانتها تبعاً لمحددات عديدة ساهمت في تكوين تلك المجتمعات، لعل أبرزها الموروث الاجتماعي التراكمي الذي كان المحدد الأهم الذي من خلاله يمكن تحديد النواحي السلبية والإيجابية لمكانة المرأة في كل المجتمعات البشرية، وهذه النواحي –كما هو معلوم – ليس لها معيار واحد عند كل البشر، لاسيما فيما يتعلق بالعقائد والأديان.

فما يحدد في جانب أنه سلبي، يراه آخر إيجابي، وربما فضيلة خلقية وواجب ديني لابد من الالتزام به، لأنه يشكّل جزءاً من التصورات العقدية التي نشأ وتربى عليها. لذا فلا يجوز – منطقياً وعقلياً – أن نحكم بصورة كلية من خلال الاعتقاد والتصور .

ولأن الدين والعقيدة هي من تحدد – في أغلب الأحيان – تلك التصورات الموروثة، وتستجلب كل مدياتها الواقعية في الموروث الاجتماعي لمجتمع ما، فقد حاولنا تسليط الضوء على مكانة المرأة بصورة عامة من خلال هذا المنظور – المنظور الديني – لنجد التصور الذي بنيت عليه مكانة المرأة في المجتمع تأسيساً على هذا العامل المهم، ولكي يكون الموضوع مترافقاً مع النصوص المقدسة، فقد كان الموضوع متساوقاً مع تلك النظرة العقدية، فكانت المرأة المتخذة كعينة للدراسة هي الأكثر لصوقاً

بالنص المقدس والأكثر تأثراً به، وهنّ نساء الأنبياء، التي سيكون محور بحثنا الرئيس هو: **(التأسيس الأيديولوجي لمكانة المرأة في التوراة والفكر اليهودي – نساء الأنبياء انموذجاً)**، وقد حاولنا فيها التعريف بمكانة المرأة في الفكر اليهودي، المبني على النص التوراتي، وكيف تبنى المجتمع اليهودي هذه الفكرة ونظر للمرأة من خلال النصوص التوراتية. والصورة التي رسمتها تلك النصوص لهذا العنصر المهم من عناصر المجتمع.

مكانة المرأة وفق النص الديني في الديانات السماوية

من النادر أن نجد قضية اختلفت وجهات النظر وتعدّدت الرؤى فيها كقضية المرأة، فقد امتدّت أقلام المفكرين والفلاسفة ودُعاة الإصلاح ورجال الدين على مرّ العصور لتناول هذه القضية بتعدد وجهات النظر فيها، حتى وصل إلى مستوى التناقض والاختلاف الجذري الذى لا مجال فيه للاتفاق أو التقارب.

ولا عَجَبَ في إن هذا التَّعَدُّد الاختلاف وكثرته عائدٌ إلى ما تشكّله المرأة في المجتمع، فهي تُعدُّ نصف المجتمع، بل نصف البشرية، وهي – بلا شك – تُؤَثّر في كافّة أوضاع العُمران البشرى؛ لأنّها لا تعيش منفردةً فيه، بل تُشكّل عماد الأسرة، فهي أمّ وبنتٌ وأختٌ وزوجةٌ، فتتأثر بمن ترتبط بهم وتؤثر بهم .

ولأننا في إطار المنظور الديني فسوف نبحث عن المكانة التي حظيت بها المرأة في الديانات السماوية الثلاث، بناءاً على ما جاءت به النصوص في الكتب السماوية.

ففي التوراة وردت نصوص كثيرة تبين المكانة التي تمتعت بها المرأة اليهودية في مجتمعها تحت ظل النصوص الدينية التي جاءت لتحدد تلك المكانة بما شكلته التشريعات الواردة فيها. ولكن ما يجب التنبيه عليه إن هذه التوراة التي بين أيدينا هي محرفة كما هو معروف وثابت، إلا إنها ثابتة ومقدسة عند اليهود، لذلك فكل ما ورد فيها يعكس وجهة النظر التي يتبنوها ومن ضمنها النصوص الواردة في المرأة.

عدت التوراة المرأة أصل الخطيئة، فقد حمَّلتها مسؤولية الخطيئة الأولى للبشرية، وهو ما ذكرته التوراة على لسان آدم: "[١٢]**فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ»**." (التكوين: الإصحاح ١٢/٣)، وحتى تتهرب من مسؤولياتها أنحت باللائمة على آدم، وبناءاً على ذلك،

فعليها إذا أن تتحمل العقاب والآلام، وتكون تحت سيادة الرجل طوال حياتها. (التفسير التطبيقي للتوراة، ٢٠٠٢، ص١٣).

وترتب على ذلك إن أظهرت التوراة الملامح السلبية للمرأة من خلال تلك التصورات المبثوثة عنها في غالب النصوص التي ذكرتها، فكانت تُسهم في خلق تلك الصورة المشوّهة للمرأة اليهودية، وتعزيز ذلك بالمزيد من السلبيات التي بثتها في صورة نصوص عدة عكست من خلالها المكانة التي وضعها الفكر الديني اليهودي فيها.

كما إنها جعلت آلام الحمل والولادة عقوبة لها على تلك الخطيئة، "[١٦]**وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ».**"
(التكوين: الإصحاح٣/١٦). فهي التي قطفت الثمرة المحرمة، وأكلت أولاً ثم أغوت آدم فأكل بعدها، فهي أساس الخطيئة، وأول من اقترف المعصية، وأوردت الرجل معها إلى الهاوية، إذا هي أصل الخطيئة. (أبو غضة، ٢٠٠٣، ص٢٣) .

ويبدو إن هذه النظرة السلبية للمرأة في الفكر اليهودي قد طغت على حياة المرأة بكاملها، حتى إنها قد أخذت صبغةً شرعية من التوراة حطّت من مكانتها كثيرا، حتى أصبحت عبدة تباع وتشترى، "[٧]**وَإِذَا بَاعَ رَجُلٌ ابْنَتَهُ أَمَةً لاَ تَخْرُجُ كَمَا يَخْرُجُ الْعَبِيدُ.**" (الخروج، الاصحاح ٧/٢١). حتى إن بعض شُراح التوراة أكدوا ذلك، وإنه كان فاشياً عند اليهود: "كان للقدماء حق أن يبيعوا أولادهم وكان ذلك فاشياً بينهم على اختلاف أممهم على ما يُفهم من تاريخ هيرودوتس." (وليم مارش، ٢٠٠٨، ص٩٦). وحتى يتجنب الاقرار بأن اليهود تعامل المرأة فقط كعبد دون الذكور، فقد ذكر إنهم يقوموا ببيع أولادهم، في إشارة إلى إنهم لا يفرقون بين الجنسين، ولكن الحقيقة إنه لا توجد لدينا إشارة – ولو بعيدة – على إنهم يبيعون أولادهم الذكور .

وقد نلتفت إلى وجود هذا التمييز بين الذكر والأنثى في التوراة بصورة أكثر وضوحاً في اكثر من نص، منها ما أوردته في حكم نجاسة المرأة التي تلد، فقد ميّزت بين من تلد ذكراً ومن تلد أنثى، فجعلت فترة نجاسة المرأة التي وضعت مولوداً أنثى ضعف مدة نجاسة المرأة التي وضعت ذكراً، "[٢]**«كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلاً: إِذَا حَبِلَتِ امْرَأَةٌ وَوَلَدَتْ ذَكَرًا، تَكُونُ نَجِسَةً سَبْعَةَ أَيَّامٍ. كَمَا فِي أَيَّامِ طَمْثِ عِلَّتِهَا تَكُونُ نَجِسَةً. ... [٤]ثُمَّ تُقِيمُ ثَلاَثَةً وَثَلاَثِينَ يَوْمًا فِي دَمِ تَطْهِيرِهَا. كُلَّ شَيْءٍ مُقَدَّسٍ لاَ تَمَسَّ،**

وَإِلَى الْمَقْدِسِ لاَ تَجِئْ حَتَّى تَكْمُلَ أَيَّامُ تَطْهِيرِهَا. ٥وَإِنْ وَلَدَتْ أُنْثَى، تَكُونُ نَجِسَةً أُسْبُوعَيْنِ كَمَا فِي طَمْثِهَا. ثُمَّ تُقِيمُ سِتَّةً وَسِتِّينَ يَوْمًا فِي دَمِ تَطْهِيرِهَا." (اللاويين، الاصحاح ١٢/٢-٥).

ولعلّ هذا النص يكشف بوضوح نظرة اليهودية إلى المرأة، فاعتبارها نجسة بعد أن تلد يكشف تلك النظرة السلبية التي تحيط بالمرأة في ضوء الفكر اليهودي، وربطها بالنص الديني يؤسس لثقافة امتهانها في المجتمع في كل النواحي الحياتية ومجالاتها.

ولو تصفحنا أحكام الشريعة اليهودية فيما يخص المرأة، فإننا نجدها قد ظُلمت كثيراً، ولعل المساواة الوحيدة بينها وبين الرجل هي في عقوبة الزنا التي فرضتها الشريعة اليهودية على مرتكبيها (الرجل والمرأة) معاً، ففي التوراة نقرأ: "[١٠]**وَإِذَا زَنَى رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ، فَإِذَا زَنَى مَعَ امْرَأَةِ قَرِيبِهِ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ.**" (اللاويين، الاصحاح ١٠/٢٠).

أما هذه المساواة فلم تتمتع المرأة بأي حق من الحقوق الخاصة بها، فلا ميراث، ولا حرية لها حتى حين تتزوج، فقد عُدت المرأة من أملاك زوجها لقاء ما دفعه من أموال لأبيها. وقد وصف (غوستاف لوبون) وضع المرأة اليهودية هذا بالقول: "أما التوجهات الصادرة عن أحبار اليهود عن المرأة اليهودية، فقد تأثرت بالتقاليد السابقة لها،إذ إن التوراة تعتبر المرأة من أملاك زوجها، في مقابل المال الذي قدمه إلى الأب، وهي مقابل ذلك تتنازل عن حقوقها المادية والإنسانية. (فتنت مسيكة بر، ١٩٩٦، ص٥٤).

ولا نجد أبلغ مما أورده ويليام باركلي في تصوير مكانة المرأة في الفكر اليهودي، فقد لخّص هذه المكانة بالقول: "كان مقام المرأة رسميًا مُتدنياً جداً. لم تكن المرأة تُعدّ كبشر في الشريعة اليهودية، وإنّما كانت تُعدّ شيئاً كانت تحت سلطان أبيها أو زوجها. كانت ممنوعة من تعلّم الشريعة، وكان يعدّ تعليم المرأة الشريعة كإلقاء اللؤلؤ إلى الخنزير". (Titus, and Phileman: 2003.p.74.) .

فالمرأة اليهودية وفق التصور الديني، سُلبت خاصيتها الآدمية والإنسانية فجُعلت من ممتلكات الرجل وخاصيّاته التي يتصرف فيها كيفما يشاء وعلى النحو الذي يشاء.

والحال لا يختلف عند المسيحيين، فالمرأة هي ذلك الكائن الذي أخطأ أولاً، وحملت آدم على الخطيئة، فدفعت البشرية ثمن خطأها، "[١٣]**لأَنَّ آدَمَ جُبِلَ أَوَّلاً ثُمَّ حَوَّاءُ، [١٤]وَآدَمُ لَمْ يُغْوَ، لكِنَّ الْمَرْأَةَ أُغْوِيَتْ فَحَصَلَتْ فِي التَّعَدِّي**". (رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس: الاصحاح١٣/٢).

ونجد آباء الكنيسة الأوائل ينتهجون نهجاً قاسياً في تعاملهم مع المرأة، فيحذرون أتباعهم من تعليمها، أو إعطاء فسحة من الحرية لها، بل يجب أن تبقى في مستوى الجهل والتخلف والعبودية حتى تكون خاضعة لنزواتهم وأفكارهم، يقول بولس: "[11]**لِتَتَعَلَّمِ الْمَرْأَةُ بِسُكُوتٍ فِي كُلِّ خُضُوعٍ.** [12]**وَلكِنْ لَسْتُ آذَنُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُعَلِّمَ وَلاَ تَتَسَلَّطَ عَلَى الرَّجُلِ، بَلْ تَكُونُ فِي سُكُوتٍ**". (رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس: الاصحاح٢/١١-١٢).

وقد نعتوا المرأة بأقذع الأوصاف، وقلّلوا من مكانتها وقيمتها حتى وصفوها بـ(كيس من الزبالة)، كما يذكر أحمد عبد الوهاب: "إن معانقة امرأة تعنى معانقة كيس من الزبالة". (١٩٨٩م، ص٢٣٠).

كما إن من يطّلع على أحد أسفار الإنجيل، وهو سفر الأمثال يرى بوضوح إن النصائح بالتزام العفّة موجّهة إلى الرجال فقط، فالرجل بنظرهم هو الضحية، أما المرأة فهي الغاوية، فلم يجري تحذيرها من الرجال، بل كان العكس من ذلك تماماً. (أحمد عبد الوهاب، ١٩٨٩م، ص٢٣٢).

أما ما نراه في الإسلام، فالمرأة قد تمتعت بمكانة كبيرة، وحفظ لها قيمتها، وأول ذلك إن القرآن الكريم لم يُحمِّلها مسؤولية الخطيئة الأولى كما فعل التوراة والانجيل، فما ورد فيه من الآيات الكريمة يؤكد إن المسؤولية كانت مشتركة بين الاثنين ولم تفعل حوّاء أكثر مما فعله آدم، بل إن الآيات تخاطب آدم أكثر مما تخاطب حواء بالمسؤولية المباشرة لارتكابه الذنب بالأكل من الشجرة التي منعها الله عنهما، قال تعالى: **{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}** (طه: الآية ١٢٠-١٢١).

ونظرة الإسلام للمرأة قائمة على المساواة بينها وبين الرجل حتى في الثواب، **{وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}** (البقرة: آية ٢٢٨). وقال سبحانه أيضاً: **{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ}** (آل عمران:١٩٥ آية) . كما إن الرجل ليس بديلاً عن المرأة في المجتمع، فلكل منهم مسؤوليتهم في بناء وتكوين المجتمع، فلكل عمله المكمل لعمل الآخر، وهو ما يُعد تعزيزاً لدور المرأة في المجتمع الإنساني. (أنظر: وحيد الدين خان، ١٩٩٤، ص ١٧٩-١٨٠).

وتحظى المرأة في التشريع الإسلامي بكامل الحقوق المدنية والاجتماعية، كما ضمن لها حتى

حق الإرث، فضلاً عن التأكيد على معاملتها معاملة عادلة واعطائها كامل حقوقها، تقول زيغريد هونكه: "إنّ الرجل والمرأة في الإسلام يتمتّعان بالحقوق نفسها من حيث النوعيّة، وإن لم تكن تلك الحقوق هي ذاتها في كلّ المجالات؛ لذلك فعلى المرأة العربية أن تتحرر من النفوذ الأجنبي... فينبغي عليها ألا تتخذ المرأة الأوربيّة أو الأمريكيّة أو الروسيّة قدوة تحتذيها، أو أن تهتدى بفكر عقائدي مهما كان مصدره؛ لأنّ في ذلك تمكينًا جديدًا للفكر الدخيل المؤدى إلى فقدها لمقومات شخصيتها، وإنّما عليها أن تتمسك بهدى الإسلام الأصيل". (محمد عمارة، ٢٠٠٥، ص٣٢٨).

التأسيس الأيديولوجي لمكانة المرأة في التوراة والفكر اليهودي

اختلفت الكتب السماوية في تصوير صورة المرأة على العموم – كما بيَّنا سابقاً – وقد تباينت صورتها بين الإجحاف والإنصاف على اختلاف النصوص المقدسة في الكتب السماوية بحسب الفكر المتبنى عموما، لا بحسب النص الحقيقي. فالنص الحقيقي غائب في التوراة والإنجيل كونهما محرَّفان – كما هو معروف – وتجلياته الحقيقية تبدو مترسخة في القرآن الكريم كونه محفوظ من التحريف .

على إننا سوف نتعامل مع الكتب الثلاثة السماوية بنفس الكيفية، لأنها وإن كان بعضها (التوراة والإنجيل) محرَّفة عندنا ومشكوك في مصداقيتها، إلا أنها مقدسة عند اليهودية والمسيحية وثابتة لديهم. لذا فسنحاكم تلك النصوص بما هي مقدسة عند أهل الديانتين، وبما يؤمنون به من قداسة لهذه النصوص على اختلاف الناس في صحتها.

ولأن موضع البحث يخص نساء الأنبياء فقد ركزنا فيه على ذكر هذه الكتب للنصوص المتعلقة بنساء الأنبياء عليهم السلام.

فقد رسمت التوراة صورة قاتمة – في غالب نصوصها – لنساء الأنبياء، وقدّمتهن بهيئات مختلفة بعيدة عن الصورة المتخيلة – بناء على ما افترضه واقعها كونها زوجة نبي مرسل.

فالمرأة اليهودية عندما تصبح شيئاً من الأشياء التي يمتلكها الرجل يتدنى مستواها وتفقد أهم ملامحها الإنسانية التي تسمو بها لتكون جنبًا إلى جنب الرجل كغاية أساسية في الحياة وفق الوظيفة الأساسية الموكلة إليهما ألا وهي إعمار الأرض على الوجه الذي يريده الخالق سبحانه وتعالى.

ففي التوراة لم تختلف صورة زوجة النبي عن صورة المرأة التي قدمتها بصورة عامة على إنها مبتذلة وسلعة رخيصة لا تزيد حاجتها عن كونها شيء كباقي الأشياء المملوكة للرجل، بل وأكثر من

ذلك بأنها قدمتها كسلعة مبتذلة وغاية رخيصة – في بعض الأحيان – بناءاً على المفهوم العام في الفكر التوراتي الذي اعتاد أن يقدم المرأة بهذه الصورة، ولكن أن يوثق ذلك بنص ديني، وتكون تلك الوسيلة زوجة لنبي يبتغي من ورائها تحقيق غايات رخيصة، تصبح هذه القضية أكبر من مسألة عرضية استثنائية تحتمل التأويل، بقدر ما تصبح منهجاً وسلوكاً يتسم بالتأصيل، يرسم ملامح المرأة اليهودية ومكانتها التي وُضعت فيها من خلال النص الديني الذي تؤمن به.

المرأة وسيلة لبلوغ المآرب

١ – سارة زوجة النبي إبراهيم

ولعل في قصة النبي إبراهيم وزوجته سارة مثال على ذلك، وإبراهيم من الأنبياء الذين يقدرهم اليهود كثيراً ويعدّونه أبو الأنبياء جميعاً، وهو صاحب العهد – المزعوم – بأن الرب أعطاه الأرض لذريته خالصة: "[٧]**وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ»**." (التكوين، الاصحاح ٧/١٢). إلا إن القصة التي أوردتها التوراة عنه تقدمه بصورة مغايرة لمكانته كنبي مرسل، فهو يقدّم امرأته سارة كسلعةٍ رخيصة لفرعون مصر حتى يحافظ هو على حياته ويأمن القتل، لأن سارة كانت جميلة ويخشى أن يقتله الملك ويأخذ امرأته كزوجةٍ له: "[١٠]**وَحَدَثَ جُوعٌ فِي الأَرْضِ، فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ، لأَنَّ الْجُوعَ فِي الأَرْضِ كَانَ شَدِيدًا.** [١١]**وَحَدَثَ لَمَّا قَرُبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَايَ امْرَأَتِهِ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ.** [١٢]**فَيَكُونُ إِذَا رَآكِ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكِ.** [١٣]**قُولِي إِنَّكِ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكِ وَتَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكِ»**.

[١٤]**فَحَدَثَ لَمَّا دَخَلَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ رَأَوُا الْمَرْأَةَ أَنَّهَا حَسَنَةٌ جِدًّا.** [١٥]**وَرَآهَا رُؤَسَاءُ فِرْعَوْنَ وَمَدَحُوهَا لَدَى فِرْعَوْنَ، فَأُخِذَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ،** [١٦]**فَصَنَعَ إِلَى أَبْرَامَ خَيْرًا بِسَبَبِهَا، وَصَارَ لَهُ غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَحَمِيرٌ وَعَبِيدٌ وَإِمَاءٌ وَأُتُنٌ وَجِمَالٌ.** [١٧]**فَضَرَبَ الرَّبُّ فِرْعَوْنَ وَبَيْتَهُ ضَرَبَاتٍ عَظِيمَةً بِسَبَبِ سَارَايَ امْرَأَةِ أَبْرَامَ.** [١٨]**فَدَعَا فِرْعَوْنُ أَبْرَامَ وَقَالَ: «مَا هذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِي؟ لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي أَنَّهَا امْرَأَتُكَ؟** [١٩]**لِمَاذَا قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي، حَتَّى أَخَذْتُهَا لِي لِتَكُونَ زَوْجَتِي؟ وَالآنَ هُوَذَا امْرَأَتُكَ! خُذْهَا وَاذْهَبْ!».** [٢٠]**فَأَوْصَى عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ رِجَالاً فَشَيَّعُوهُ وَامْرَأَتَهُ وَكُلَّ مَا كَانَ لَهُ.**" (التكوين، الاصحاح ١٤/١٢–٢٠).

ولو أردنا أن نبحث في عناصر هذه القصة وما حوته من إشارات، فإننا نرى إنها قدمت صورة مسايرة للمنهج اليهودي الذي يعدّ المرأة سلعة تخصّ الرجل يفعل بها ما يشاء، فهي كمتاعٌ من أمتعته، فضلاً عمّا قدمته هذه القصة من استغلالها من قبل إبراهيم كوسيلة للإبقاء على حياته، حتى وإن تطلب الأمر التخلي عن شرفه – حاشا لله أن يفعل ذلك – وأن يقدم امرأته بيده لفرعون، على الرغم مما يُفهم من إن سلوك إبراهيم هذا لا يدلّ على خوفه على حياته، وإنما كان يبغي من ورائه الحصول على نعمٍ وعطايا منه، وهذا الفعل القبيح لا يصدر من إنسانٍ عادٍ، فكيف بنبي مرسل ؟

لكن القصة في النهاية تتساوق مع الفكر اليهودي الذي يريد إظهار المرأة بهذا المظهر البائس الرخيص.

ويبدو إن إبراهيم – بحسب التوراة – قد أدمن عمل هذا الشي، لأنه يُعيد الأمر بعد ذلك وبنفس الطريقة المبتذلة، والتي يصفها أحد المؤرخين بالقول: "فأبرام كما صورته توراة اليهود لم يكن إلا قوادًا يصطحب معه امرأته معه ليصل إلى ما يريد، والأحداث المتلاحقة تشير إلى ذلك، وسفر التكوين نفسه يقدم الدليل على ذلك". (ديب علي حسن: ٢٠٠٠، ص٥٦–٥٧). وهذه القصة تشير إلى استخدام إبراهيم لزوجته سارة مرة أخرى لتحقيق أغراضه ومنافعه الشخصية: "[١]**وَانْتَقَلَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَرْضِ الْجَنُوبِ، ...** [٢]**وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ سَارَةَ امْرَأَتِهِ: «هِيَ أُخْتِي». فَأَرْسَلَ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ جَرَارَ وَأَخَذَ سَارَةَ.** [٣]**فَجَاءَ اللهُ إِلَى أَبِيمَالِكَ فِي حُلْمِ اللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: «هَا أَنْتَ مَيِّتٌ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ الَّتِي أَخَذْتَهَا، فَإِنَّهَا مُتَزَوِّجَةٌ بِبَعْل».** [٤]**وَلكِنْ لَمْ يَكُنْ أَبِيمَالِكُ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، أَأُمَّةً بَارَّةً تَقْتُلُ؟** [٥]**أَلَمْ يَقُلْ هُوَ لِي: إِنَّهَا أُخْتِي، وَهِيَ أَيْضًا نَفْسُهَا قَالَتْ: هُوَ أَخِي؟ ...** [٧]**فَالآنَ رُدَّ امْرَأَةَ الرَّجُلِ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، فَيُصَلِّيَ لأَجْلِكَ فَتَحْيَا. وَإِنْ كُنْتَ لَسْتَ تَرُدُّهَا، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَوْتًا تَمُوتُ، أَنْتَ وَكُلُّ مَنْ لَكَ».** (التكوين، الاصحاح ٢٠/١–٧).

ويبدو إن خوف أبيمالك من الله الذي تجسد له – حاشا لله – هو الذي جعله يخاف من فعله هذا فأقدم على ردّ سارة إلى إبراهيم: "[٨]**فَبَكَّرَ أَبِيمَالِكُ فِي الْغَدِ وَدَعَا جَمِيعَ عَبِيدِهِ، وَتَكَلَّمَ بِكُلِّ هذَا الْكَلاَمِ فِي مَسَامِعِهِمْ، ...** [١٤]**فَأَخَذَ أَبِيمَالِكُ غَنَمًا وَبَقَرًا وَعَبِيدًا وَإِمَاءً وَأَعْطَاهَا لإِبْرَاهِيمَ، وَرَدَّ إِلَيْهِ سَارَةَ امْرَأَتَهُ.**" (التكوين، الاصحاح ٢٠/٨–١٤).

والواضح من النص التوراتي الصورة المبتذلة التي تقديمها لسارة زوجة النبي إبراهيم، وهي ذات

الفكرة المستقاة لصورة المرأة في الفكر اليهودي. فها هو الرب يتدخل لإنقاذ شرف سارة زوجة إبراهيم بعد أن حاول إبراهيم التكسب من وراء زوجته للمرة الثانية، وقدّمها للملك من أجل ذلك.

٢ – رفقة زوجة النبي إسحاق

ولم تكُن محاولة التكسب من وراء النساء بتقديمهم للملوك مقتصرة على إبراهيم، بل يبدو إن ذلك أصبح مهنة عند أنبياء بني إسرائيل مثلما جاء في التوراة، فقد تكررت هذه القصة أيضاً مع النبي إسحاق، إذ استخدم زوجته (رفقة) كوسيلة لبلوغ غاياته في الحصول على مكاسب مادية رخيصة، وبنفس الذرائع التي استخدمها أبوه إبراهيم: "[٦]**فَأَقَامَ إِسْحَاقُ فِي جَرَارَ.** [٧]**وَسَأَلَهُ أَهْلُ الْمَكَانِ عَنِ امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: «هِيَ أُخْتِي». لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَقُولَ: «امْرَأَتِي» لَعَلَّ أَهْلَ الْمَكَانِ: «يَقْتُلُونَنِي مِنْ أَجْلِ رِفْقَةَ» لأَنَّهَا كَانَتْ حَسَنَةَ الْمَنْظَرِ.** [٨]**وَحَدَثَ إِذْ طَالَتْ لَهُ الأَيَّامُ هُنَاكَ أَنَّ أَبِيمَالِكَ مَلِكَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ أَشْرَفَ مِنَ الْكُوَّةِ وَنَظَرَ، وَإِذَا إِسْحَاقُ يُلاَعِبُ رِفْقَةَ امْرَأَتَهُ.** [٩]**فَدَعَا أَبِيمَالِكُ إِسْحَاقَ وَقَالَ: «إِنَّمَا هِيَ امْرَأَتُكَ! فَكَيْفَ قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي؟» فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ: «لأَنِّي قُلْتُ: لَعَلِّي أَمُوتُ بِسَبَبِهَا».** [١٠]**فَقَالَ أَبِيمَالِكُ: «مَا هذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِنَا؟ لَوْلاَ قَلِيلٌ لاضْطَجَعَ أَحَدُ الشَّعْبِ مَعَ امْرَأَتِكَ فَجَلَبْتَ عَلَيْنَا ذَنْبًا».** [١١]**فَأَوْصَى أَبِيمَالِكُ جَمِيعَ الشَّعْبِ قَائِلاً: «الَّذِي يَمَسُّ هذَا الرَّجُلَ أَوِ امْرَأَتَهُ مَوْتًا يُمَوتُ».**" (التكوين، الاصحاح ٢٦/٦–١١)

سارة زوجة إبراهيم (الغيورة الحاقدة)

ومن القصص العجيبة التي أوردتها التوراة عن (سارة) أيضاً، هي قصتها مع (هاجر) جاريتها وزوجة النبي إبراهيم أيضاً، فهذه المرأة التي كانت عاقراً، فقامت بإهداء جاريتها (هاجر) لزوجها فتزوجها، فولدت له ابنه إسماعيل، الأمر الذي أثار غيرتها من جاريتها – كما تذكر التوراة – لدرجة إنها قامت بإذلالها حتى هربت منها. وهذا كله كان بموافقة إبراهيم وتحت ناظريه: "**وَأَمَّا سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ فَلَمْ تَلِدْ لَهُ. وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ اسْمُهَا هَاجَرُ،** [٢]**فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: ... ادْخُلْ عَلَى جَارِيَتِي لَعَلِّي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ». فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِقَوْلِ سَارَايَ. ...** [٤]**فَدَخَلَ عَلَى هَاجَرَ فَحَبِلَتْ. وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرَتْ مَوْلاَتُهَا فِي عَيْنَيْهَا.** [٥]**فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «ظُلْمِي عَلَيْكَ! أَنَا دَفَعْتُ جَارِيَتِي إِلَى حِضْنِكَ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرْتُ فِي عَيْنَيْهَا. يَقْضِي الرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ».** [٦]**فَقَالَ أَبْرَامُ لِسَارَايَ: «هُوَذَا جَارِيَتُكِ فِي يَدِكِ. افْعَلِي بِهَا مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْكِ». فَأَذَلَّتْهَا سَارَايُ، فَهَرَبَتْ مِنْ وَجْهِهَا**".

(التكوين: الإصحاح ١٦/١-٦) .

وعند التمعن في هذا النص، نجد إن التوراة قد أساءت إلى مقام النبي إبراهيم بتصويره كشخص عاجز مسلوب الإرادة، ذو شخصية سلبية تجاه زوجته (سارة)، فتتحكم به كيفما تشاء، وهو لا يملك إلا تلبية رغباتها، حتى لو كان ذلك على حساب ظلم شخص آخر كزوجته. وكأنه ليس نبياً بعثه الله سبحانه ليشيع العدل بين الرعية.

كما إنها تصوّر (سارة) امرأة متسلطة ظالمة، ليس في قلبها ذرة من الرحمة لجاريتها التي أهدتها بنفسها لزوجها، لكن غيرتها منها بعد أن تلد ولداً ذكراً تحولها إلى امرأة ظالمة حاقدة تحاول النيل منها بأي ثمن. وهذا كله يحدث بموافقة نبي الله إبراهيم وبمباركته.

وقد وصل بها حقدها على (هاجر) أن تأمر إبراهيم بطردها وطفلها الصغير من البيت، لأنها رأته يمزح، فغضبت وأمرت إبراهيم بمنعه من الميراث: "[٩]**وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَمْزَحُ، [١٠]فَقَالَتْ لإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّ ابْنَ هذِهِ الْجَارِيَةِ لاَ يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ». [١١]فَقَبُحَ الْكَلاَمُ جِدًّا فِي عَيْنَيْ إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ. [١٢]فَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: «لاَ يَقْبُحُ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ أَجْلِ الْغُلاَمِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ اسْمَعْ لِقَوْلِهَا، لأَنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. [١٣]وَابْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لأَنَّهُ نَسْلُكَ»**". (التكوين، الاصحاح ٢١/٩-١٣).

وعلى الرغم مما في النص من إشارة إلى تفوق العنصر اليهودي، وتلميح التوراة المستمر لذلك، إلا إننا نلاحظ إن طلب سارة كان قد حظي بموافقة الرب وبمباركته، وهو دليل على نهج التوراة في الإشارة إلى تفوق العنصر اليهودي على باقي البشر، وهو ما قام عليه الفكر اليهودي واستخدم لذلك كافة الوسائل من أجل إيصال هذه الفكرة إلى الناس عن طريق النص الديني، ولعل من أبشع الوسائل التي استخدما هي المرأة اليهودية التي سخّرها تسخيراً كاملاً من أجل إبراز هذه الغاية. ولعل طبيعة هذا النص يؤكد ما ذهبنا إليه.

عبادة الأصنام عند نساء الأنبياء

١-زوجة النبي يعقوب تعبد الأصنام

تزوّج النبي يعقوب من ابنتي خاله (لابان)، أي إنه تزوّج بأختين – على حدِّ زعم التوراة – وكان (لابان) قد اتفق مع يعقوب على أن يعمل عنده لسبع سنين مقابل أن يزوجه من ابنته (راحيل) التي

طلبها يعقوب، (جورج بست، ١٩٠١، ج٢، ص٢٨٢). لكن (لابان) زوّجه اختها (ليئة) بعد انقضاء أجل السبع سنوات، فأتفق معه مرة أخرى على العمل سبع سنوات أخرى مقابل تزويجه براحيل، فتم الاتفاق وانقضت المدة وتزوج يعقوب راحيل أيضاً. (أنظر: أبو عضة، ٢٠٠٣، ص٢٧).

وهذا مختصر لقصة زواج النبي يعقوب من زوجتيه (راحيل وليئة)، ولسنا بصدد مناقشة ما جاء في هذه القصة لأنها خارج موضوع هذه الدراسة، بقدر ما يهمنا تقديم صورة واضحة عن راحيل زوجة النبي يعقوب حسب النصوص التوراتية التي ذكرت قصتها بصورة مفصلة. وملخص هذه القصة هي إن راحيل سرقت أصناماً كانت في بيت أبيها عندما رحلت مع يعقوب هرباً من أبيها (لابان): "[١٧]**فَقَامَ يَعْقُوبُ وَحَمَلَ أَوْلاَدَهُ وَنِسَاءَهُ عَلَى الْجِمَالِ، [١٨]وَسَاقَ كُلَّ مَوَاشِيهِ وَجَمِيعَ مُقْتَنَاهُ الَّذِي كَانَ قَدِ اقْتَنَى: مَوَاشِيَ اقْتِنَائِهِ الَّتِي اقْتَنَى فِي فَدَّانَ أَرَامَ، لِيَجِيءَ إِلَى إِسْحَاقَ أَبِيهِ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. [١٩]وَأَمَّا لاَبَانُ فَكَانَ قَدْ مَضَى لِيَجُزَّ غَنَمَهُ، فَسَرَقَتْ رَاحِيلُ أَصْنَامَ أَبِيهَا.**" (التكوين، الاصحاح ٣١/١٧-١٩).

والملاحظ على هذا النص إن زوجة يعقوب كانت وأبيها – الذي يبدو إنه نبي هو الآخر – يعبدون الأصنام، ويبدو إن يعقوب كان على علم بذلك، بل إن (لابان) سمّى هذه الأصنام بآلهتي كما يدل النص الآتي من التوراة: "[٢٦]**وَقَالَ لاَبَانُ لِيَعْقُوبَ: «مَاذَا فَعَلْتَ، وَقَدْ خَدَعْتَ قَلْبِي، وَسُقْتَ بَنَاتِي كَسَبَايَا السَّيْفِ؟ [٢٧]لِمَاذَا هَرَبْتَ خُفْيَةً وَخَدَعْتَنِي وَلَمْ تُخْبِرْنِي حَتَّى أُشَيِّعَكَ بِالْفَرَحِ وَالأَغَانِيِّ، بِالدُّفِّ وَالْعُودِ، [٢٨]وَلَمْ تَدَعْنِي أُقَبِّلُ بَنِيَّ وَبَنَاتِي؟ الآنَ بِغَبَاوَةٍ فَعَلْتَ! [٢٩]فِي قُدْرَةِ يَدِي أَنْ أَصْنَعَ بِكُمْ شَرًّا، وَلكِنْ إِلهُ أَبِيكُمْ كَلَّمَنِيَ الْبَارِحَةَ قَائِلاً: احْتَرِزْ مِنْ أَنْ تُكَلِّمَ يَعْقُوبَ بِخَيْرٍ أَوْ شَرّ. [٣٠]وَالآنَ أَنْتَ ذَهَبْتَ لأَنَّكَ قَدِ اشْتَقْتَ إِلَى بَيْتِ أَبِيكَ، وَلكِنْ لِمَاذَا سَرَقْتَ آلِهَتِي؟».**" (التكوين، الاصحاح ٣١/٢٦-٣٠).

وكما هو واضح من النص إن زوجة يعقوب وأبيها – النبي – كانوا يقرون بعبادتها. فضلاً عن ذلك قدّم لنا بعض شُرّاح التوراة توضيحاً يُعدّ تأكيداً على ما ذكرته التوراة، فيقول: "كان الكثيرون من الناس يحتفظون في بيوتهم بأصنام صغيرة خشبية أو معدنية، وكانت هذه الأصنام تسمى (ترافيم)، وكانوا يظنون إنها تحمي البيت وتقدم المشورة في وقت الحاجة، وكان لها أهمية قانونية، لأنها عندما تنتقل لأحد بالوراثة كان من حق من يمتلكها أن يدعي بأن له أكبر نصيب من ميراث العائلة، فلا عجب من أن ينزعج (لابان) عند اكتشافه ضياع أصنامه. ومن المحتمل جداً إن راحيل سرقت أصنام أبيها لأنها خشيت أن يستشيرها (لابان) ويعرف أين ذهبت هي ويعقوب". (التفسير التطبيقي للكتاب

المقدس، ٢٠٠٢، ص٨٤) .

كما يذكر وليم مارش في شرحه على إنها كانت آلهةً لأبيها (لابان)، وإنها كانت تُعبد في بني إسرائيل لمدة طويلة حتى إن بعض الأنبياء كانت لديهم أصنامهم الخاصة المصنوعة من المعدن: "وذُكر أنها آلهة أبيها في « ترافيم » أَصْنَامَ أَبِيهَا في العبرانية. وعبادة الترافيم بقيت مدة طويلة على ما في تاريخ العهد القديم فكان لميخا أفود وترافيم مسبوكة. ونظن من قرائن ذكرها في الكتاب أنها كانت في هيئة الإنسان ولكنها صغيرة". (٢٠٠٨، ص١٤٦-١٤٧).

وفي محاولة منه لإعطاء تفسير منطقي لعملية اقتناء هذه الأصنام من قبل راحيل، يحاول أن يخفف من وطأة قوله السابق فيقول إنها أُبطلت عبادتها فيما بعد، وإنها كانت تستخدم للتكهن، وقد أُخذت عن (نبوخذ نصر)، ويقدم تبريراً مضطرباً على وجودها في بني إسرائيل وعبادتها من قبلهم: "وقد ذُكرت الترافيم في تاريخ الإصلاح الذي أتاه الملك يوشيا أنها من جملة ما أبادها. والذي رأيناه في سفر نبوءة زكريا أنها كانت تُستعمل استعمالاً للتكهن. وفي سفر نبوءة هوشع أن الترافيم كانت كثيرة بين الأسباط العشرة. ويُظن أن العبرانيين أخذوها عن الكلدانيين لأن نبوخذ نصر ملك بابل كان يتكهن بها. والظاهر أن تكون سَدَنتها وخَدَمتها النساء وكن يتفاءلن بها فسرقتها راحيل متوقعة أن يكون بها نجاح لنفسها ولزوجها". (وليم مارش، ٢٠٠٨، ص١٤٦-١٤٧).

وبالعودة إلى راحيل وسرقتها للأصنام، تقدم التوراة نصاً آخر لعملية احتيال راحيل على يعقوب وأبيها، فتخبئ الأصنام المسروقة في حداجة الجمل وتجلس عليها، ولم يجدوها رغم تفتيشهم لرحلها: "٣٣**فَدَخَلَ لاَبَانُ خِبَاءَ يَعْقُوبَ وَخِبَاءَ لَيْئَةَ وَخِبَاءَ الْجَارِيَتَيْنِ وَلَمْ يَجِدْ. وَخَرَجَ مِنْ خِبَاءِ لَيْئَةَ وَدَخَلَ خِبَاءَ رَاحِيلَ.** ٣٤**وَكَانَتْ رَاحِيلُ قَدْ أَخَذَتِ الأَصْنَامَ وَوَضَعَتْهَا فِي حِدَاجَةِ الْجَمَلِ وَجَلَسَتْ عَلَيْهَا. فَجَسَّ لاَبَانُ كُلَّ الْخِبَاءِ وَلَمْ يَجِدْ.** ٣٥**وَقَالَتْ لأَبِيهَا: «لاَ يَغْتَظْ سَيِّدِي أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُومَ أَمَامَكَ لأَنَّ عَلَيَّ عَادَةَ النِّسَاءِ». فَفَتَّشَ وَلَمْ يَجِدِ الأَصْنَامَ**". (التكوين، الاصحاح ٣١/٢٦-٣٠).

وهذه صورة زوجة يعقوب النبي، زوجة سارقة وعابدة للأصنام على الرغم من إنها متزوجة بنبي، وهو يعلم إن زوجته تعبد الأصنام وتسرق، فيسكت عنها ؟ فأيُّ نبيٍ وأيُّ امرأة تلك التي قدمتها لنا التوراة في نصوصها ؟

٢ –أم ميخا تصنع أصناماً

ولم تقتصر عبادة الأصنام على نساء يعقوب بل تعدت إلى غيرها من نساء الأنبياء، فهذه أم النبي (ميخا) هي الأخرى تعمل أصناماً لتضعها في بيتها الذي هو بيت ابنها (ميخا) النبي، والذي هو الآخر يشاركها العمل ذاته، ورد في التوراة: "[١]**وَكَانَ رَجُلٌ مِنْ جَبَلِ أَفْرَايِمَ اسْمُهُ مِيخَا. [٢]فَقَالَ لأُمِّهِ: «إِنَّ الأَلْفَ وَالْمِئَةَ شَاقِلِ الْفِضَّةِ الَّتِي أُخِذَتْ مِنْكِ، وَأَنْتِ لَعَنْتِ وَقُلْتِ أَيْضًا فِي أُذُنَيَّ. هُوَذَا الْفِضَّةُ مَعِي. أَنَا أَخَذْتُهَا»... [٣]فَرَدَّ الأَلْفَ وَالْمِئَةَ شَاقِلِ الْفِضَّةِ لأُمِّهِ. فَقَالَتْ أُمُّهُ: «تَقْدِيسًا قَدَّسْتُ الْفِضَّةَ لِلرَّبِّ مِنْ يَدِي لابْنِي لِعَمَلِ تِمْثَال مَنْحُوتٍ وَتِمْثَال مَسْبُوكٍ. فَالآنَ أَرُدُّهَا لَكَ». [٤]فَرَدَّ الْفِضَّةَ لأُمِّهِ، فَأَخَذَتْ أُمُّهُ مِئَتَيْ شَاقِلِ فِضَّةٍ وَأَعْطَتْهَا لِلصَّائِغِ فَعَمِلَهَا تِمْثَالاً مَنْحُوتًا وَتِمْثَالاً مَسْبُوكًا. وَكَانَا فِي بَيْتِ مِيخَا. [٥]وَكَانَ لِلرَّجُلِ مِيخَا بَيْتٌ لِلآلِهَةِ، فَعَمِلَ أَفُودًا وَتَرَافِيمَ وَمَلأَ يَدَ وَاحِدٍ مِنْ بَنِيهِ فَصَارَ لَهُ كَاهِنًا**". (القضاة، الاصحاح ١٧/١–٥).

وعلى الرغم من كون النص السابق مليء بالافتراءات على مقام الأنبياء ونسائهم، إلا إننا سوف نشير فقط لهذه الافتراءات دون أن ندخل بتفاصيلها لكونها خارج موضوع بحثنا.

فالنص يتهم النبي بأنه سارق، وقد سرق من والدته (١٢٠٠) شاقل من الفضة، وحين أعاد المال خوفاً من دعائها عليه باللعن، قامت بصنع تمثال ووضعته في البيت، كما يفهم من هذا النص إن ميخا وأمه كان لهم بيت خاص للأصنام، والظاهر إنه كان يحتوي على العديد منها، وليس واحد فقط.

وهذا كله من عجائب ما دوّن في التوراة، فأنبياء تسرق، ونسائهم وأمهاتهم يعبدن الأصنام وهم يعرفون بذلك ويسكتون، أو يعبدونها معهم !

الاحتيال عند نساء الأنبياء

رفقة زوجة إسحاق (المحتالة الكاذبة)

وقصة أخرى تستعرضها التوراة لزوجة النبي إسحاق (رفقة)، وهذه المرة تصوّر التوراة هذه المرأة بأنها محتالة وكاذبة، ومفاد القصة إن إسحاق بعد أن كَبُر وضعف بصره أراد أن يقوم بمباركة ابنه البكر (عيسو)، وهذه المباركة في عقيدة اليهود الدينية تعني إن يحصل صاحبها على امتيازات يمتاز عن غيره من أخوته، وأن يُعطى نصيباً واحداً زائداً عن غيره من الأخوة. (نخبة من الباحثين، قاموس

الكتاب المقدس، ص١٣٩) .

فطلب من (عيسو) مفادها أن يصنع له طعاماً ليأكله ثم يقوم بمباركته، فسمعته زوجته (رفقه)، فقامت بدعوة يعقوب لأن يعمل الطعام ليحظى بمباركة أبيه بدل (عيسو)، لأنها تفضله عليه. ولأن (عيسو) كان شخصاً مشعراً على عكس يعقوب، احتالت (رفقة) على إسحاق، فألبست يعقوب ثياب أخيه، وجعلت جلود الماعز على يديه ليبدو مشعراً كأخيه فينخدع إسحاق به ويباركه: "**وَأَخَذَتْ رِفْقَةُ ثِيَابَ عِيسُو ابْنِهَا الأَكْبَرِ الْفَاخِرَةَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهَا فِي الْبَيْتِ وَأَلْبَسَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا الأَصْغَرَ، [١٦]وَأَلْبَسَتْ يَدَيْهِ وَمَلاَسَةَ عُنُقِهِ جُلُودَ جَدْيَيِ الْمِعْزَى. [١٧]وَأَعْطَتِ الأَطْعِمَةَ وَالْخُبْزَ الَّتِي صَنَعَتْ فِي يَدِ يَعْقُوبَ ابْنِهَا**". (التكوين: الاصحاح ٢٧/١٥-١٧) .

فتنطلي الحيلة على إسحاق، ويحصل يعقوب على المباركة بفعل هذه الحيلة المتقنة من قبل زوجته (رفقة).

وهذه القصة كسابقاتها تؤكد على نهج التوراة الثابت في الإساءة لمقام الأنبياء أولاً، وتصوير المرأة بهذا التصوير الذي يعد امتداداً للفكر اليهودي في تعمد الإساءة للمرأة ثانياً. حتى لو كانت هذه المرأة زوجة نبي من الأنبياء.

ففضلا عن كونها تنسب المكر والخديعة إلى نبي الله يعقوب، فإنها تنسب الجهل والسذاجة للنبي إسحاق أيضاً، الذي لا يستطيع التمييز بين شعر البشر وشعر الماعز .

الزنا عند نساء الأنبياء

١ – بلهة سرية يعقوب (زانية)

رسم الفكر اليهودي بناءاً على نصوص التوراة ملامح للمرأة الزانية بصور شتى، لكن الصورة الأكثر وضوحاً هي تقبل المرأة اليهودية لهذا الفعل باستسلام وخضوع تام لممارسته، بل إنه في بعض الأحيان تسعى النصوص التوراتية لخلق ذرائع واهية لتبرير تلك الأفعال الشنيعة. وكأنها تسعى للقول بأن الزنى فعل مباح عند اليهود وله ما يبرره. وقصص الزنى في التوراة كثيرة جداً. وهي لا تميّز بين النساء، فنساء النبي كغيرهن لها من هذه القصص نصيب.

ولعل إحداها تخصّ بلهة إحدى سرايا (جواري) النبي يعقوب، وهذه المرأة كانت في الأصل جارية لراحيل زوجته، فوهبتها له، وقد ولدت له ابنان هما دان ونفتالي.(جورج بست، ١٩٠١، ج١، ص٢٤٨).

تدور أحداث هذه القصة المشينة كما تصورها التوراة في بيت نبي الله يعقوب، من قبل ابنه البكر رأوبين – ابن ليئة – وبلهة جاريته، فالفاعل والفاعلة من هذا البيت الذي يفترض أن يكون بيت طهر وشرف أصيل متأصل، فهو وأبوه وجده من أنبياء الله ورُسله للعالمين، فهل يعقل أن يكون هذا البيت الطاهر وكراً لممارسة الرذيلة والعهر، تقول التوراة: "[٢١]**ثُمَّ رَحَلَ إِسْرَائِيلُ وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ وَرَاءَ مَجْدَلَ عِدْرٍ.** [٢٢]**وَحَدَثَ إِذْ كَانَ إِسْرَائِيلُ سَاكِنًا فِي تِلْكَ الأَرْضِ، أَنَّ رَأُوبَيْنَ ذَهَبَ وَاضْطَجَعَ مَعَ بِلْهَةَ سُرِّيَّةِ أَبِيهِ، وَسَمِعَ إِسْرَائِيلُ.**" (التكوين، الاصحاح ٣٥/٢١) .

كل ذلك يجري ويعقوب النبي يعلم ذلك ولا نراه يتخذ موقفاً أو حتى ينزعج من فعل الزنى في بيته وعلى فراشه. ولكن الفكر اليهودي ونظرته المتدنية للمرأة جعل مثل هذه النصوص التوراتية تمر مرور المتسالم به، بل وروّج الفكر اليهودي لذلك؛ فالمرأة – كما سبق وذكرنا – سلعة للرجل ووسيلة لتحقيق أغراضه وتلبية متطلباته.

وفي مشهدٍ أكثر إثارة للدهشة والعجب، إن التوراة تذكر إن الرب هدد داود النبي بأن يأخذ نسائه ليقدمهن إلى أقربائه ليمارسوا الزنى معهن، ليعاقبه على فعله مع (أوريا) وأخذه لزوجته منه بعد أن تسبب بقتله. حيث تذكر أن داود رأى امرأة تدعى (بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ)، "**فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُـــلاً وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا.** [٥]**وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ**". (صموئيل الثاني: الإصحاح ١١/٤) .

وجزاءاً له على فعله هذا يهدد الرب بفعل المثل له، أي أن يدفع زوجاته إلى آخرين ليزنوا بهن: "**قَدْ قَتَلْتَ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذْتَ امْرَأَتَهُ لَكَ امْرَأَةً، وَإِيَّاهُ قَتَلْتَ بِسَيْفِ بَنِي عَمُّونَ.** ...[١١]**هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجِعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ.** [١٢]**لأَنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ بِالسِّرِّ وَأَنَا أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ قُدَّامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَقُدَّامَ الشَّمْسِ**»". (صموئيل الثاني، الاصحاح ١٢/١٠-١٢).

ولا نجد أبلغ مما قاله هاني فحص يصف هذه النص التوراتي المسيء للذات الإلهية المقدسة، حيث قال: "وكأن إله التوراة ممن يحبون أن تشيع الفاحشة لا أن تبقى سراً ومحدودة ... إن العقوبة هي في المحصلة تبرير أصلي للجريمة ... ومسكينة هي المرأة اليهودية، هي الجريمة وهي العقاب". (١٩٨٨، ص١٢٤).

وعلى هذا بُني الفكر اليهودي ليقابل المرأة بكل ما هو سيء وغير مقبول بحقها، ويبرر كل فعل تنتهجه ايديولوجيتهم الفكرية تجاه العقدة الأزلية في الفكر وهي عقدة المرأة. وكيف لا يفكرون بها بهذه الدونية والإله الذي خلقها هو الذي جعلها في مثل هذه المكانة الاجتماعية المتدنية، وليس لها سوى التسليم والقبول بذلك.

٢ – ابنتا النبي لوط وممارسة الزنا مع أبيهن

ولا تنقضي ملامح العهر اليهودي بحق المرأة، فهناك قصة أخرى مرتبط بنبي الله لوط وابنتاه، إذ قامتا بسقي أباهما خمراً ومارستا الزنى معه، وانجبتا منه ابنين.

وتكشف التوراة تفاصيل هذه القصة بالقول: ""**وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، ...** [٣١]**وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ.** [٣٢]**هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلاً».** [٣٣]**فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا.** [٣٤]**وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: «إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلاً».** [٣٥]**فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا،** [٣٦]**فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا.** [٣٧]**فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «مُوآبَ»، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ.** [٣٨]**وَالصَّغِيرَةُ أَيْضًا وَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ «بِنْ عَمِّي»، وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ**". (التكوين: الإصحاح ١٩/٣٠–٣٨).

ولا نعلم الاصرار على قضية الزنا وارتكابها الواردة في النصوص التوراتية المدونة، لاسيما وإن معظم هذه القصص تخص الأنبياء، وهم كما هو معلوم ليسوا أشخاصاً عاديين، بل مختارين بالعناية الإلهية لحمل رسالات السماء إلى البشرية. هذا فضلاً عن إنها تتناقض مع نصٍ آخر أوردته التوراة تحذّر فيه الناس من الزنا، "[١٤]لاَ تَزْنِ." (الخروج، الاصحاح ١٤/٢٠).

ولكن إصرار اليهود، على الإساءة لمقام الأنبياء، والمرأة اليهودية هو الذي يجعل مثل هذه النصوص التي تقلل من مكانتهم، حتى إن بعض مفسريهم يحاولون تقليل من أهمية هذا الموضوع، وإن ذلك لا يعدوا إن بنات لوط أخطأوا وقد سكتت التوراة عن الحديث عن هذه الخطيئة، وعدوا إن ثمن هذه الخطيئة هو الأطفال الذين أنجبتهم بناته. (التفسير التطبيقي للتوراة، ٢٠٠٢، ص٥٢). فيما قال

مفسر آخر: "رأى كثيرون من محدثي المفسرين أن هذه الحادثة علة أن اليهود كانوا يكرهون الموآبيين والعمونيين ويعيرونهم بأصلهم ولكن الذي يظهر لنا مما قيل في الأصحاح الثاني من سفر التثنية أن لا أثر لذلك الكره ولا لتلك العداوة وولاء. ويدلنا على ذلك أيضاً ما كان من أمر راعوث الموآبية وما كان من المودة بين ملك موآب وداود". (وليم مارش، ٢٠٠٨، ص١٠٢) . وهذا الرأي ينفي بشكل كامل أن يكون ذلك بسبب الكره والأحقاد بين الموآبيين واليهود، بل كأنه يثبت وجود مثل هذه الحادثة بحق بنات لوط، وهذا استمرار للفكر اليهودي الذي يعامل المرأة بهذا الشكل .

فالزنى في الفكر اليهودي قد أخذ مأخذه في شريعتهم التي وضعتها أفكارهم التي حرّفت نصوص الشريعة السماوية ونسختها بشريعة بائسة تشجع على الزنى وممارسته، بل وأكثر من ذلك فإن أقلام الذين افتروا على الله كذباً قد تمادت في تشجيع زنا المحارم كما جاء في التلمود المكتوب، تشجيعاً منهم للفاحشة التي حرّمها الله تعالى: "من يحلم أنه ارتكب الفحشاء مع أمه، يمكنه أن يصير حكيماً... ومن يحلم أنه ارتكب الفحشاء مع خطيبته، له أمل كبير في الحصول على صداقة الشريعة. ومن يحلم أنه ارتكب الفحشاء مع شقيقته، له أمل بإنارة نفسه. ومن يحلم أنه ارتكب الفحشاء مع امرأة قريبه، يحصل على السعادة الخالدة". (كاظم الحجاج، ٢٠٠٢، ص٨٢-٨٣).

وهذا النص يدل على إن الفكر اليهودي قد حاول بجهد كبير استغلال المرأة بأبشع صور الاستغلال، حتى باتت سلعة رخيصة تُمرر بها غايات الرجل في المجتمع اليهودي دون الالتفات إلى كون المرأة هي ركن أساس من تكوين ذلك المجتمع، منتهكة بذلك كل حرمة ممكنة لها. ولم تسلم حتى نساء الأنبياء من هذا الاستغلال البشع، فهنّ في النهاية نساء كغيرها من النساء.

كما يتبين لنا مدى إصرار التوراة على الإساءة إلى مقام الأنبياء وكل ما يرتبط بتاريخهم الذي يجب أن يكون مشرفاً وطاهراً من كل دنس، نظراً لأن الله سبحانه قد اختارهم لأمر جليل وهو تبليغ رسالته إلى الناس وهدايتهم إلى طريق الصواب، فكيف يهدون الناس وهو لا يهتدون بهدي الله تبارك وتعالى، فهم لم يصلحوا عوائلهم ولم يستطيعوا أن يقوموا بهداية أهل بيتهم فكيف يهدون الناس، بل كيف يتقبل المجتمع منهم وهم بهذه الصورة المنحلة ؟ وحاشا لله أن يكونوا كذلك. ولكن إصرار التوراة على إدامة الإساءة للأنبياء ما هو إلا نهج ثابت يكشف عن الفكر المنحرف لأرباب التوراة المحرفة.

كما إن استغلال المرأة كوسيلة لغايات رخيصة منهج متبع عند اليهودية وعقيدة يؤمنون بها، لم تتغير

ولم تتبدل عبر التاريخ، وإن المكانة التي وضعها فيها الفكر الديني شيء مقدس بالنسبة لها قديماً وحديثاً، فمكانة المرأة اليهودية وفق النص الديني التوراتي جعلت بمنزلة أدنى من منزلة الرجل اليهودي، وأصبحت شيئًا من ممتلكاته، ووسيلة من وسائله لتحقيق مآربه وغاياته الخاصة، وهي بسلبياتها وإيجابياتها جزء من التصور العقدي الذي يؤمن به اليهود.

الخاتمة وأهم الاستنتاجات

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

١- تناولت التوراة المرأة بصورة مجحفة، من خلال نصوصٍ عدّة دلّت على المكانة المتدنية للمرأة في الفكر اليهودي عموماً .

٢- أساءت النصوص التوراتية لمقام الأنبياء كثيراً، وقدمت صوراً مشوهةً بصورة متعمدة، ويكاد لا يخلو تاريخ نبي من الأنبياء من توجيه إساءة كبرى له أوردتها التوراة دون وازع ديني يردعهم عن ذلك . بل إنهم تبنوا ايديولوجية الإنسان الخاطئ، بمعنى إن كل إنسان مهما كان مقامه لابد وأنه خاطئ. ولم يسلم من ذلك حتى الأنبياء .

٣- اتجهت التوراة اتجاهاً آخر في الإساءة لمقام الأنبياء والمرأة على حدٍ سواء من خلال الإساءة لنساء الأنبياء واتهامهم باتهامات لا يمكن أن تصدر عن إنسان مؤمن بالله فضلا عن كونه من نسل الأنبياء أو يعيش في بيت نبي .

٤- تبنى الفكر اليهودي فكرة إن فلسفة وجود المرأة – بصورة عامة – وسيلة لتحقيق غايات الرجل ومصالحه مهما كان نوع هذه الغايات والمصالح، حتى لو كانت هذه الغاية وسيلة دنيئة، فعلى المرأة أن تكون المحصلة لهذه الغاية. ولم تستثنَ من ذلك حتى لو كانت من نساء الأنبياء كزوجته أو ابنته أو اخته، فهي امرأة وهذه هي الغاية من وجودها .

٥- إن تبني هذه الفكرة – فيما يخص المرأة – جاءت متوافقة مع النصوص الدينية التي درج كُتّاب التوراة على تمريرها للوصول إلى أهدافهم وتحقيقها حتى لو كان النص يستهدف مقام نبي من الأنبياء

٦- لم يدّخر الفكر اليهودي أي وسيلة ممكنة دون الإساء إلى مكانة المرأة في المجتمع وتأسيس فكر موحد نحو تحديد هذه المكانة بصورة خاصة في تدني مستواها الاجتماعي بناءاً على تبنيهم لمثل هذه الأفكار المبنية على النص الديني المقدس – برأيهم.

المصادر والمراجع

- **التوراة**
- **الإنجيل**
- **القرآن**
- أبـو عضـة، زكـي علـي السيد، المرأة فـي اليهوديـة والمسيحية والإسـلام، ط١، دار الوفـاء للطباعـة والنشـر والتوزيـع، (المنصورة، ٢٠٠٣) .
- أحمد عبد الوهاب، تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام، ط١، دار التوفيق النموذجية، (القاهرة، ١٩٨٩) .
- التفسير التطبيقي للتوراة، شركة ماستر ميديا، (القاهرة، ٢٠٠٢) .
- جورج بوست، قاموس الكتاب المقدس، المطبعة الأمريكانية، (بيروت، ١٩٠١) .
- ديب علي حسن، المرأة اليهودية بين فضائح التوراة وقبضة الحاخامات، ط١، الأوائل، (دمشق، ٢٠٠٠) .
- فتنت مسيكة بر، حواء والخطيئة في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، ط١، مؤسسة المعارف، (بيروت، ١٩٩٦) .
- كاظم الحجاج، امرأة الجنس بين الأساطير والأديان، ط٢، مؤسسة الانتشار العربي، (بيروت، ٢٠٠٢) .
- محمد عمارة، الإسلام في عيون غربية، بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء، ط١، دار الشروق، (القاهرة، ٢٠٠٥)
- نخبة من الباحثين، قاموس الكتاب المقدس، شركة كومبوبريل، (د.م، د.ت) .
- هاني فحص: التهويد الثقافي، المرأة مثالًا، ط١، دار الأمالي، (بيروت، ١٩٨٨) .
- وحيد الدين خان، المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية، ترجمة: سيد رئيس أحمد الندوى، مراجعة: د. ظفر الإسلام خان، ط١، دار الصحوة للنشر، (القاهرة، ١٩٩٤) .
- وليم مارش، السّنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم، صدر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، (بيروت، ١٩٧٣).

* Titus, and Phileman .The Letters to Timothy, 2nd. Westminster John Knox Press – Kentucky 2003.